الدمشقي والأبراج

دمشق مدينة تعلّمك أن تكون قويًا دون قسوة، وعالمًا دون غرور، ومتدينًا دون خوف، وأن تفهم النار... دون أن تحرقك.

كانت الأسواق عامرة في دمشق الجميلة من عام 1190 م والتي كانت قلبا نابضا للعالم الإسلامي في لحظة تاريخية شديدة التوتر والجمال فقد تم تحرير القدس قبل ثلاث سنوات ولكن بقيت مدينة صور في يد الصليبيين ومنها خرجوا لحصار عكا برا بعد أن جاءت الحملة الصليبية الثالثة مع ريتشارد قلب الأسد حاكم إنجلترا وفيليب حاكم فرنسا من البحر فكان الحصار على المدينة الباسلة وحاكمها الشجاع بهاء الدين قراقوش وجاء صلاح الدين من البر ليخفف الحصار عن المدينة، في معارك مستمرة استمرت لعامين وفي

مدينة دمشق كان الدمشقي يجلس مـع والده في ورشة النحاس ومعـه رضـوان الغلام 10 سنوات.

مع ساعات الفجر كان سـوق النحّاسـين في دمشـق مـا زال يتثـاءب تحت قبابـه الحجرية.

رائحة الفحم، والخل، والنحاس الساخن تختلط مع صوت ماء يجـري في سـاقية قريبة.

وقف الدمشقي شابًا، كمّـاه مرفوعـان، يطرق بمطرقته طرقات موزونـة، كأنهـا إيقاع يعرفه قلبه قبل يـده. خلفـه، كـان أبوه، شيخ بوجه نحاسي اللون من كثرة النار، يقلب صفيحة في الجمـر، ثم قـال بصوت هادئ:

- لا تضـربه وهـو غاضـب يـا ولـدي... النحاس مثـل النـاس، إن قسـوت عليـه وهـو بـارد انكسـر، وإن سـخّنته زيـادة احترق وخان شكله.

توقّف الدمشقي، مسح العرق عن جبينه، وقال:

- أعرف يا أبي... لكني أتعجل أحيانًا.

ضحك الأب ضحكة قصيرة، وأشار بعينيه إلى زاوية الورشة. حيث يقف رضوان غلام في العاشرة، نحيل الجسد، واسع العينين، يمسك قطعة نحاس صغيرة، يتأملها كأنها كنز.

الأب: تعال يا بني.. هل تعرف لماذا نخلط الملح بالخل؟

هز الغلام رأسه نفيًا.

أخذ الأب إناءً صغيرًا، سكَب فيه قليلًا من الخل، ورشّ عليه الملح،

ثم ناول الإناء للدمشقي.

- امسح به النحاس.

فعل الدمشقي،

وسرعان ما بدأ السطح يستعيد لمعانه.

الغلام بدهشة: كأنه عاد حيًا

ابتسم الدمشقي، وجثا على ركبتيه أمامه وقال:

- كل علم يبدأ بدهشة. النحاس لا يموت، هو فقط ينسى شكله... ونحن نُذكّره.

رفع الأب حجرًا أخضر صغيرًا (الزنجار)، وقال:

- وهذا إن تركناه عليه صار قبحًا، وإن عرفنا كيف نستخدمه صار زينة. مثل المعرفة تمامًا.

سكت لحظة، ثم أضاف وهو ينظر إلى ابنه:

- يا ولدي... من تعلّم كيف تُطاوَع النار، لن تخدعه الدنيا.

نظر الدمشقي إلى الغلام، ووضع في يده المطرقة الصغيرة: جرّب... لكن

تــذكّر لا تضــرب بقــوة، اســمع صــوت النحاس أولًا.

رفــع الغلام المطرقــة، وضــرب ضــربة خجولـــة... رنّ الصـــوت في الورشـــة، خفيفًا...

تحت قناديل دمشق

كـان الليـل قـد بـدأ يهبـط على دمشـق ببطء،

لا كضـــيفٍ ثقيـــل، بـــل كســـتار حريـــري يُسدل على يومٍ طويل.

خرج الدمشقي من سوق النحاسين،

والغلام إلى جـــواره، خطواتهمـــا تـــتردّد فوق حجارة صقلتها أقدام ألف عام.

القناديـل الزيتيـة عُلّقت على الجـدران، تضيء الطريق بنورٍ أصفر خافت، يـترك للظل مساحة كي يحكي قصته.

الغلام (بهمس): لماذا تبدو المدينة مختلفة ليلًا؟

ابتسم الدمشقي، ولم ينظر إليه، بل إلى الطريق الممتد أمامهما.

الدمشقي: لأن النهار يُظهر ما نعمل، والليل يُظهر ما نفكّر.

مرّا بجوار دكان عطّار، انبعثت رائحة القرنفل والخل والورد، فتوقف الغلام لحظة.

الغلام: كل شيء هنا له رائحة.

الدمشقي: ومن لا رائحة له... لا ذاكرة له.

تابعا السير. من بعيد، كان صوت ماء بردى ينساب، خفيفًا كأنه يخشى أن يوقظ المدينة.

عند زاوية ضيّقة، مرّ شيخ يحمل مخطوطة تحت ذراعه، وبعده جندي

أيّـوبي يربــط ســيفه، ثم صــبي يــركض حافي القدمين.

الدمشــقي: دمشــق لا تســأل من أنت، بل: ماذا تضيف؟

اقتربا من باب شرقي، والحارس يتثاءب وهـو يشـدّ عباءتـه فتبـادلا التحيـة وأكملا طريقهما الى المسجد لصلاة الفجر

مضيا، وتحت قوس حجري قديم، توقّف الدمشقي فجأة.

الدمشقي: اسمع.

ســكت الغلام. لا شــيء ســوى: وقــع خطــوات بعيــدة. نــداء مــؤذن متــأخر خشخشة قنديل يهتز

الدمشــقي: هــذه المدينــة تتنفســومن يعيش فيها طويلًا، يتعلّم أن يسمع قبــل أن يتكلم.

رفع الغلام رأســه إلى القناديــل: الغلام: هل تحب دمشق؟

نظر الدمشقي إليه هذه المرة، ثم قال: أنا منها... والمرء لا يسأل قلبه إن كان يحب صدره.

تابعا المشي، وظلّ نور القناديل خلفهما، كأن المدينة تراقبهما... وتبتسم.

درس النار

لكن درس الدمشقي لم ينتهى فبعد صلاة الفجر يبدأ العمل في الكيمياء وتحديدا كيمياء النار التي يعشقها وتعرض للكثير من السخرية من أصدقائه بسببها ولكن في البداية كان يعطى درس لرضوان عن النار وكيف أن النار الأغريقية مثلا لا تطفئ حتى بالماء وقام بحرق مادة تشبه (التنر) في وعاء نحاس ووضع القليل من الماء ولكنه لم تنطفئ الا عندما القي عليها الرمل ثم وضع قليل من الزيت في كوب وأشعله وطافت النار المشتعلة

فـوق المـاء ولكنـه وضـع وعـاء زجـاجي حول الكوب ليمنع الهواء فكانت النتيجـة انطفاء النار تلقائيا

ثم قـال متحـدثا لرضـوان - النـار تحتـاج ثلاثـة طعـام تاكلـه، ونَفَس، وشـرارة إن أخذتَ واحـدًا... مـاتت ونحن هنـا أخـذنا منها الهواء فانطفئت.

وكرر رضوان التجربة مع شمعة مشتعلة بوعـاء زجـاجي حولهـا وانطفئت بـدورها وهنـــا جلس الدمشـــقي على الأرض، والغلام إلى جواره، وعلى مسافة قريبـة صفيحة نحاس لم تُطرق بعد.

قال الدمشقي وهو يحدّق في اللهب:

- الناس تظن النـار وحشًـا... لكنهـا في الحقيقة كائن مطيـع، يخـدم من يفهمـه، ويحرق من يتحدّاه بجهل.

وهنا وضع إنـاءين صـغيرين على طاولـة ثم قال لرضوان

المـــادة الأولى نســـتخدمها في صـــنع المراهم ومـا شـابهها من أدويـة (يقصـد الجلســرين) أمــا الثانيـــة فســـنتخدمها للتطهير من الجـروح (يقصـد برمنجنـات البوتاســيم) والان سنضــعهم معــا مــع نقطة ماء صغيرة وورقة لتشتعل

أشار إلى الإنـاءين دون أن يلمسـهما ثم أكمل

- حين تجتمـــع بعض الأشـــياء الهادئـــة، تستيقظ النار

أشياء تُستعمل للدواء، لتطهير الجــروح، ولتلـــيين المفاصـــل إذا اجتمعت بغـــير علم، واسـتيقظت بالمـاء، تـذكّرت أنهـا نار.

رضوان - أدوية تصبح نارًا؟

ضحك الدمشقي ضـحكة قصـيرة: العلم لا يعـرف خـيرًا ولا شـرًا، يعـرف الفهم فقط.

وبعد لحظات اشتعلت الورقة وصاح رضوان

- لقد ايقظت النار حقا

انتهى الدرس مع رضوان الذي شكر الدمشقي ورحل ولكن بعد دقائق مسرعا وصاح فيه

- تعالي بسرعة الى المسجد الأموي يجب أن ترى ما يحدث
لم يرد الدمشقي بل أسرع خلفه جاريا وهناك وأمام المسجد كان يجلس رجل يبدو عليه الاجهاد من السفر وعلى وجهه اصابات من معارك عكا كما ذكر وعندما حضر الدمشقي كان الرجل يقول
- العلوج أحضروا ثلاثة أبراج مثل القلاع يضربون عكا منها لا نستطيع احراقها حاولنا بكل الطرق ولكننا فشلنا لا أعرف كيف صنعوها ولكنها لاتحترق يضربون منها ولا نستطيع

الوصـــــول لهم حـــــتى أن الملاعين
يأكلون ويحتفلون فيها ويسخرون منا
بهذا الشكل ستسقط عكا قريبا

تقدم جنـود من الرجـل وقـال احـدهم – صلاح الدين حفظه الله ينتظرك

عاد الدمشقي الى والده وأخبره برغبتـه في الذهاب الى عكـا فلعـل اللـه يجعـل النصر على يديه في مواجهة تلك الأبراج اللعينة ولكن الأب طلب منه أن يتحـدث الى بن شداد أولا مستشار ووزير صـلاح الدين وفي زاوية بمسجد الأمــوي جلس بن شداد مع صناع النحـاس والدمشـقي وكان يقول

صنعوا تلـك الأبـراج من أخشـاب خاصـة جلبوهــا من غابــات الجزائــر، وغلفوهــا بــالجلود المبللــة، وطينٍ مقــاوم للنــار، ومواد أخـرى تجعلهـا لا تحـترق، لاتوجـد قوات بحرية لضربهم من البحر وصـنعوا خنــدق حــول عكــا وجنــودهم يرتــدون

الحديـــد دائمـــا ويغطى كـــل جســـدهم نضربهم بالسهام فيصبحوا مثل الأشـجار المتحركة لن تسـتطيع المدينـة الصـمود بهذه الطريقة

هنا تدخل الدمشقي في الحوار

لدي تركيبة يمكن أن تحرق تلك الأبــراج ويتم تصنيعها من مواد وخامات متــوفرة ولكن يجب أن نكون في عكا بسرعة

سأصـحبك الى عكـا اليـوم ولكن أحضـر أدواتك وأرجو أن تكون محقا

معركة الأبراج

احضر الدمشقي أدواته وأوراق لاتتعــدي العشـــرين صـــفحة في حقيبـــة وبعض الطعام وانطلـق مـع بن شـداد الى عكـا وهناك وقف القائد قراقوش، حاكم عكا، على سور القلعة يراقب الأبراج، ووجهه يقطر ألماً. رُمي السهام، وصُـب الـزيت

المغلي، وقُذف الحطب المشتعل... ولكن الأبراج لا تتوقف، ولا تحترق

في تلك الليلة، اجتمع مجلس العلماء والمجاهدين، وقال قراقوش:

– "لقد جرّبنا كل شيء... النار لا تأكل تلك الأبراج! فهل عندكم من علمٍ أو حيلة؟"

سكت الجميع، وهنا نهض بن شداد وقدم الدمشقي للجميع شاب نحيل طويل اللحية، عيناه تتوهجان ذكاءً، وملابسه تفوح منها رائحة الأعشاب والنحاس والخل بعد أن قام بعدد من التجارب في المعمل بالحصن.

قال:

– "اسمي الدمشقي. جئت من دمشق بدعوة من الله، لا من بشر. وقد صنعت شيئًا قد يحرق ما ظننتموه لا يُحرق...

لكنهـا نـار لا تُطلـق إلا بصـدق النيـة وإخلاص العمل."

دهش القوم، وقال قراقـوش: – "أتعـدنا بالنصر؟"ـ

فقـال الدمشـقي: – "لا أعـدكم بشـيء. ولكني أُقسم أن العلم سلاح لا يُهزم، إذا حمله رجل مؤمن ذو أخلاق."

ولكن قراقـوش – لقـد جربنـا كـل شـئ ويجلس أمامك خـير علمـاء الأرض فهـل ستنجح أنت ولا أحد يعرفـك من العلمـاء ولـولا الحصـار لمـا قابلتـك ولا تحـدثت معك

وهنـا اعـترض أحـد العلمـاء على كلام قراقوش وقال لها – لعل الله تعال جعل الفرج على يد هذا ولا يضـرنا ان نوافقـه على قوله

استسـلم قراقـوش لقـول العلمـاء وفي صباح اليوم التـالي، خـرج فرسـان عكـا

من البوابـة، يحملـون زجاجـات فخاريـة صغيرة، مملوءة بسائل شفاف له رائحة نفـاذة، صـمّمه الدمشـقي من الزيـوت، والملح الصـخري، والقطـران، والخـل، وبعض الأسرار التي لا تُقال إلا للثقات.

كانت الأبـراج الثلاثـة واقفـة مثـل القلاع والصـليبين داخلهـا يضـحكون ويـأكلون ويحتفلون يشربون الخمر وهم يقومـون بتعبئة السلاح والذخيرة لضـرب المدينـة من جديد

ونظـر أحـدهم الى جنـود عكـا وهم يسـتعدون لضـرب الأبـراج وسـخر وهـو يقول

- ماذا يفعل هـؤلاء ستسـقط مـدينتهم اليوم أبراجنا أقوى من ني.....

ولكنـه لم يكمـل الجملـة فقـد ضـرب الجنـود الأبـراج بزجاجـات الدمشـقي فأحـدثت شـرارة كبـيرة واشـتعلت الأبـراج كأنهـا أعمـدة من نـار تلتهمـا

السـماء ودقـائق وكـانت الأبـراج ومن عليها حطام ورماد وسُـمعت تكبـيرات أهل عكا تملأ الأفـق، وعـاد الدمشـقي إلى مخبره الصـغير في القلعـة، يكتب في دفتره:

"إنما العلم نور، لا يُضـيء إلا في يـد من كان قلبه نقيًـا، ولسـانه صـادقًا، وسـعيه في سبيل الخير."

ومنذ ذلك اليوم، صار أهل عكـا يقولـون لأبنائهم:

"كن مثـل الدمشـقي... لا تغضـب، بـل تفكر. لا تصرخ، بـل اخـترع. لا تـؤذِ، بـل دافع عن الخير بالعلم والعمل."

ورغم الانتصار الكبير الا أن سقوط عكـا كان مؤكـدا مـع تفـرق قـوى المسـلمين وتخلى الكثير عن مساندة صـلاح الـدين والمدينة وضخامة الحشود الصليبية فقد حشدت أوربا أقوى ملوكها متحدين معـا

فسقطت المدينة في 1191م بعد حصار بدء في أغسطس 1189م

كمين قراقوش

دخل فيليب ملك فرنسا على ريتشارد ملك إنجلترا غاضبا وبدأ حديثه

- لماذا أطلقت سلاح قراقوش أنه رجل مهم لصلاح الدين لقد رأيت كيف صمد أمام كل هذه الأساطيل عامين كاملين
- فيليب عزيزي لقد دفع الرجل فدية ممتازة
- فديه .. كنوز الشام كلها بين أيدينا .. هل أصبحت شرها.. أم متسامحا مثل صلاح الدين
- متماسحا سيتم اعدام 3000 أسير الليلة
- ليتك قتلت قراقوش أيضا

- لاتقلق كمين من أفضل 10 فرسان عندي ينتظروه في الطريق لن يصل للقاهرة أبدا
- ريتشارد قلب الأسد أنت قلب الثعلب لا الأسد

يضحكان

أنطلق بهاء الدين قراقوش بحصانه عائدا الى القاهرة وفي الطريق تفأجا بكمين من الفرسان العشرة فرسان ريتشارد أحاطو به بالخيل ومعهم عربة نقل خشبية فنزل بسرعة من الحصان وأخرج سيفه وهو يستمع بهدوء الى سخرية الفرسان به وتقدم كبيرهم منه وهو يقول ساخرا

- بهاء الدين قراقوش أنتظرت هذه اللحظة عامين وأنا في البحر الان أنا على البر وساقتلع رأسك

رد قراقوش بهدوء – ما تفعله خطأ

ضـحكوا جميعـا من جملـة قراقـوش ولكن قبـل أن ينطـق أي منهم بكلمـة أخـرج من جيبـه من شـئ القـاه على العربية الخشبية التي انفجرت مشتعلة ثم انطلـــق كالســـهم وقتلهم جميعـــا بضربة واحـدة سـريعة من سـيفه ولم يتمكن أحـد منهم من لمســه أو حـتى ضـربه بالسـيف وبقى رئيســهم وهــو يصرخ مذهولا متألما من اصابة برجلــه من سيف قراقوش

- أيهـــا الملعـــون كـــان يجب قتلـــك بالسهام لا مبارزتك

فرد قراقوش – أخبرتك أن ما تفعلـه خطـــا كنت أقصـــد أنـــه لايكفي 10 فرسان لقتلي لا الخيانة للعهد فهـذه أخلاقكم تخونـــوا العهـــود دائمـــا ولا أخلاق لكم

لم ينتظر قراقوش ردا بل أقتلع رأسه بضربه من سيفه وأنطلق في طريقه الى القاهرة للقاء صلاح الدين

وهناك قابل صلاح الدين وقص عليه ما حدث وكيف أن لعبة الدمشقي المتفجرة أنقذته من كمين ريتشارد وطلب منه أن يقدم مكافاة للدمشقي على أعماله خلال الحرب ولكن صلاح الدين أخبره بأنه فعل ذلك ولكن الدمشقي رفض أي شئ وارادها خالصة لله وعاد الى مدرسته ومعمله في دمشق ليخدم الإسلام والمسلمين بعلمه

جلست مع أطفالي مليكة 9 سنوات وحمزة 5 سنوات في المنزل وحكيت لهم قصة الدمشقي وكيف أنه استطاع بعلمه أن ينتصر على جيوش الظلم في حصار عكا وقررت تعليمهم تجربة تحضير غاز ثاني أكسيد الكربون

فاحضرت (كوب زجاجي شفاف - خل أبيض - بيكربونات الصوديوم (بيكينج بودر) - شمعة صغيرة - ولاعة أو عود ثقاب ملعقة طبق صغير)

وضعت الشمعة في منتصف الطبق وأشعلتها ثم جعلت مليكة تضع في الكوب الزجاجي ملعقتين صغيرتين من البودر ثم صب حمزة ربع كوب من الخل ببطء وعلى الفور حدث فوران وتصاعد غاز ثاني أكسيد الكربون ثم قمت بإمالة الكوب فوق الشمعة كما لو كنت أصب الهواءً فانطفئت الشمعة ثم شرحت لهم أن تفاعل الخل مع بيكربونات الصوديوم، ينتج غاز يسمى ثاني أكسيد الكربون، وهو أثقل من الهواء ولا يُرى. عند "صبّه" من الكوب، ينزل ويغطي الشمعة ويمنع عنها الأكسجين، فتخمد

ثم أكملت: "كما استخدم الدمشقي علمه لإطفاء شر الأعداء وحرق أبراجهم، يمكننا أن نتعلم كيف تشتعل النار وكيف تنطفئ، لا لنؤذي، بل لندافع عن الخير، ونستخدم العلم لنُبدع ونحمي ونبني."

قصة الدمشقي والابراج قصة حقيقية لعالم مسلم في الكيمياء فبعد أن هاجم الصليبيين عكا بابراج ضخمة صنعوها من نوع خاص من الخشب احضروه من الجزائر ومع إضافة الخل والطين والجلود ومواد أخرى أصبح تدمير البرج وحرقه مستحيلا بكل المواد المتاحة وبدأ الياس يستحوذ على أهل عكا رغم كل الجهود من داخل عكا وخارجها وجاء الفرج على يد الدمشقي وصنع المادة التى أحرقت ابراج الصليبيين وكانت الهزيمة الساحقة برا وبحرا... القصة مستمرة والابراج لا تزال ولكن في

شــكل حــاملات طــائرات وصــواريخ الخ ويضــربون غــزة ولبنــان وســوريا واليمن وهم واثقين من عـــدم وجـــود من يـــرد ولكن ندعو الله أن يرسل الفرج والنصر على أعـداء الـدين كمـا أرسـله على يـد الدمشقي.